(13) المشكلة الثالثة [العنف والتسامح]

إذا كان من الحكمة مواجهة العنف باللاعنف واللاتسامح بالتسامح، فكيف نهذب مبدأ التناقض القائل بأن المتناقضين لا يجتمعان ؟

***

مقدمة : طرح المشكلة

الوضعية المشكلة وتحليلها ؛

التعليق على الوضعية المشكلة.

I . ما العنف وما تعليلاته ؟

أولا : منطقه (قانون مقابلة المثل بالمثل في القصاص)؛

ثانيا : تعريف العنف ؛

ثالثا : أسبابه وتعليلاته.

II . حكمة مقابلة العنف باللاعنف (والشر بالخير)

أولا : سلبيات العنف؛

ثانيا : إيجابيات اللاعنف.

III . التسامح : تعريفه وطبيعته والحكمة منه.

أولا : تعريفه وطبيعته

ثانيا : الحكمة من التسامح ونفوره من القيود.

خاتمة : حل المشكلة.

تطبيق : نص فلسفي

http://www.onefd.edu.dz جميع الحقوق محفوظة ©

مقدمة : طرح المشكلة

قال تعالى: " وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿118﴾ إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿119﴾[1] ".

وقال عز وجل : " الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿40﴾"[2] .

تقرِّر الآيتان أن الناس خُلقوا مختلفين، وأن الاختلاف طبيعةٌ طبعهم الله عليها وهذا ما فهمه بعض المفسرين من قوله تعالى " ولذلك خلقهم"؛ أي كي يكونوا مختلفين، قال بعض المفسرين اختلافهم في الأديان(مسيحيون ويهود ومجوس، والمستثنون بالرحمة المسلمون)، وقال آخرون اختلافهم في الرزق (أغنياء وفقراء) وقال آخرون أهل الحق وأهل الباطل[3]. وأيّا كان المعنى المراد في الآيات، فإنّ الاختلاف حقيقة يذكرها القرآن الكريم وتعترف بوجودها العقول السليمة وأثبتتها علوم الإنسان. ونتج عن هذا الاختلاف تباين في المصالح وصراع وعنف. فهل العنف قدرُ البشرية؟ وإذا كان قدرا، فلماذا تدعو الأديان السماوية إلى نبذ

---

[1] . سورة هود الآيات 118 – 119 .

[2] . سورة الحج الآية 40.

[3] . انظر تفسير الطبري.

http://www.onefd.edu.dz جميع الحقوق محفوظة ©

العنف والتعامل مع المخالفين بالإحسان؟ أليس في دعوة الفلسفات الأخلاقية الكبرى إلى التسامح له ما يبرّره أم أنّها مجرد تأملات مثالية؟

الوضعية – المشكلة وتحليلها :

وقف " أبو بكر الصديق" رضي الله عنه؛ عزيزي الدارس؛ يوصي جيش أسامة بن زيد وهو متوجّه إلى القتال، قال: « يأيها الناس، أوصيكم بعشر، فاحفظوها عني : **1**– لا تخونوا ولا تغلّوا، **2** – ولا تغدروا ولا تمثلوا ، **3**– ولا تقتلوا طفلا صغيرا، 4– ولا شيخا كبيرا ولا امرأة، **5** – ولا تعقروا[1] نخلا ولا تحقروه، **6** – ولا تقطعوا شجرة مثمرة، **7**– ولا تذبحوا شاة ولا بعيرا إلاّ لمأكلة، **8** – وسوف تمرّون بأقوام قد فرغوا أنفسهم في الصوامع، فدعوهم وما فرغوا أنفسهم له، **9** – وسوف تقدمون على قوم يأتونكم بآنية فيها ألوان الطعام، فإذا أكلتم منها شيئا بعد شيء، فاذكروا اسم الله عليها؛ **10**– وتلقون أقواما قد فحصوا أوساط رؤوسهم وتركوا حولها مثل العصائب فاخفقوهم بالسيف خفقا، واندفعوا باسم الله » [2] .

---

[1] . عقر النخل : قطع رأسها.

[2] . شوقي أبو خليل : التسامح في الإسلام (المبدأ و التطبيق) دار الفكر – دمشق – سوريا 2003 ص 14– 15– 16.

http://www.onefd.edu.dz جميع الحقوق محفوظة ©

تحليل الوضعية – المشكلة والتعليق عليها :

لاحظ؛ أيها المتعلّم؛ أنّه في وجهة العنف يأمر "أبو بكر الصديق" جيش أسامة باللاعنف، والجيش مُقدم على القتل والخليفة يأمره بعدم القتل. إن "أبا بكرالصديق" يعلِّم الجيش أن العنف ليس مطلوبا لذاته ولا هو محمود متى لم يكن له ما يبرره، لذلك فقتل الطفل والشيخ والمرأة والعابد في صومعته، هي من الشرور التي يجب على الجيش أن يبتعد عن فعلها، إذا أراد أن يُكتب له النصر.

بل عليه أن يترك العنف الذي لا مبرّر له حتى مع النبات والحيوان، فلا يُعقروا نخلا، ولا يحرقوه، ولا يقطعوا شجرة، ولا يذبحوا شاة ولا بعيرا إلاّ للطعام. وفي مقابل هذا السلم والتسامح، يأمر الجيش أن يكون شديدا مع الأعداء الذين يقاتلونهم في المعركة.

وهذه الوثيقة تدفعنا للتساؤل : هل كل عنف مذموم، ومن ثم هل يجب أن نتسامح حتى مع الذين يحملون علينا السيف ويريدون قتلنا؟ أليس العنف جزءًا من مملكة الطبيعة؟ وهل يمكن الحديث عن عنفٍ مبرّرٍ ومشروعٍ؟ وإذا كان العنف هو جوهر مملكة الطبيعة فهل اللاعنف هو الذي يحدّد الطبيعة البشرية؟

من خلال محاولة حلّنا لمشكلة العنف والتسامح، سنتعرض على نحو جزئي أو كلّي للإجابة عن هذه التساؤلات وأخرى ضمنية أو فرعية، لننتهي من المشكلة بتحديد أين يجب أن ينتهي العنف وأين يجب أن يبدأ التسامح.

http://www.onefd.edu.dz جميع الحقوق محفوظة ©

I . ما العنف وما تعليلاته ؟

أولا . منطقه : قانون مقابلة المثل بالمثل في القصاص[1]

لقد وَجد الإنسان في قانون مقابلة المثل بالمثل في القِصاص[2]، ومنذ القديم، روح العدل والإنصاف في ضمد الجراح واسترضاء الفطرة في إدانة المُدان. وأيّدته الكتب السماوية[3]، وكثيرٌ من الدساتير التي وضعتها الدول والأنظمة

---

[1] . وهو قانون أَمَرَ بوضعه الملك "حمورابي" سنة 1730 ق.م. يتضمن 282 مادة ؛ ترجمه إلى الفرنسية الأب " جان فانسون شيل " ؛ تحتفظ " طهران " و" باريس " بنسخة منه ؛ (La loi du Talion) .

[2] . وتحديدا في هذا السياق : العنف بالعنف واللاتسامح باللاتسامح.

[3] . جاء في سفر الخروج، أن : " من تسبب في مكروه، الحياةُ بالحياة والعينُ بالعين والسن بالسن واليد باليد والقدم بالقدم والجرح بالجرح ... " (21) ، (23–25) ؛ وفي سفر التكوين: " إنما قتل النفس بالنفس،لأن الله خلق الإنسان على صورته "، (9، 6) ؛ وجاء في إنجيل " متّى " : " من قتل إنسانا يقتل، ومن قتل حيوانا، فالنفس بالنفس. ومن تسبب في إحداث عاهة لدى مواطن، يعامل بالمثل : الكسر بالكسر والعين بالعين والسن بالسن. وكذا يجازى بنفس العيب : من أحدث عيبا في الغير؛ فمن ضرب حيوانا يدفع الثمن، ومن قتل إنسانا يقتل؛ سيكون لكم نفس التشريع بالنسبة للمهاجر أو أهل البلد على حد سواء" (Lévitique,9, 17-22). وفي القرآن الكريم، يقول الله تعالى: " ومن أجل ذلك، كتبنا على بني إسرائيل أنه من قتل نفسا بغير نفس أو فساد في الأرض، فكأنما قتل الناس جميعا، ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعا " (المائدة ، 32).

http://www.onefd.edu.dz جميع الحقوق محفوظة ©

العالمية[1]. وفي **لغة ميزان المثل بالمثل**، كانوا يقابلون العنفَ بالعنف والعينَ بالعين[2].

ومؤدى هذا القانون أنه : من يتعدى عليك، فلابدّ من الردّ عليه بمثل ما تعدى به عليك، بغرض الدفاع عن النفس، وبحكم معادلة الشتم بالشتم والعين بالعين ؛ فاللاتسامح الذي ينفي التسامح يجب أن يقابل بالمماثل بعينه، وهو اللاتسامح. ولكنْ، ما هاته الحكمة التي تقتضي أن يُقابَل المِثْلُ بنقيضِه ؟

لقد وجدَ الناسُ في قانون **القصاص** بالمثل أو العين بالعين منذ أقدم العصور، الوسيلة المناسبة لمحاربة الانتقام الشخصي والجمعي، وما ينجرّ عنه من دوامة العنف، وللحثِّ على **الاقتصاص العادل**. و لقد تدرج الإنسان في مراجعته قصد تهذيبه، والحدّ من قسوته، وذلك بإدخال مفهوم التعويض والإصلاح، وكذا تعزيز العفو العُرفي، والإفصاح الفطري. إلاّ أن قانون العين بالعين عاد من جديد في مفهومه المادي والانتقامي، في صورة بشعة، باسم محاربة الإرهاب وتكريس الديمقراطية، ومحاربة الشر بالشر[3]. وأساس هذه الإستراتيجية، استخدام كل طاقات

---

[1] . وخاصة بعد الهجمة الإرهابية التي هزت الولايات المتحدة الأمريكية في 2001/9/11.

[2] . والعين في اللغة العربية، تكتسي عدة معان؛ إنها في هذا السياق، حاسة البصر، وتعني أيضا . إذا تكررت . الذات الإنسانية.

[3] . في احتلال العراق مثلا، وفي مواجهة الصهيونية للمقاومة الفلسطينية، وذلك عن طريق القتل الفردي والجماعي والتهديم والتشريد، بأسلحة فتاكة تصل أهدافها بسرعة ودقة عجيبتين. ولعل أكثر أنواع الإرهاب شيوعاً هو ما نجده في أثناء الحروب، فعلى الرغم من وصول الحضارة البشرية إلى ضوابط إنسانية عامة (تحييد المدنيين، منع قصف المؤسسات الإنسانية والمحايدة، سَنُّ قوانين لمحاكمة مجرمي الحرب ...)، إلا أن هذه الضوابط

http://www.onefd.edu.dz جميع الحقوق محفوظة ©

القوة لتحطيم العدوّ، مما انجرَّ عنه انحطاط مفهوم الإنسان، وظهور وسائل حربية جديدة للدفاع عن النفس، مثل العمليات الانتحارية أو الاستشهادية[1] وهي وسائل أثارت جدالا كبيرا في أوساط المقاومة، ورجال الدين، وأهل العلم.

ثانيا : تعريف العنف

يُعرّف**العنف** "Violence" بأنّه : **كلّ عمل يضغط به شخص على إرادة الغير لسبب أو لآخر؛ وهذا العمل يستوجب استعمال القوة[2]. ومن الآثار التي يتركها [3]، التسلّط على الغير والنيل من حرمة حياته الجسدية والذهنية، وتحطيمه[4] وهو أخطر مظاهر العنف.**

التي أصبحت قيماً عالمية دفعت مراكز القوى العالمية إلى التحايل عليها تحت تسميات مختلفة وذرائع مختلفة.

[1] . لأنّها من أنماط المقاومة الحديثة التي طرأت بعد ظهور المتفجرات وتقدم تقنياتها. وهي في الغالب جزء مما يسمى بـ" حرب العصابات " التي تقوم بها مجموعات فدائية سريعة الحركة، وقد برزت أهمية مثل هذا اللون من المقاومة في الحرب الأهلية الأمريكية، وفي الحرب العالمية الثانية، وما بعدها، وصارت جزءاً من نظام الحروب الذي يدرس في المعاهد والأكاديميات الحربية.

[2] . وفي تعريف آخر ، " إن العنف يكمن في استخدام القوة ، ولكن من أجل الضغط على الغير، مع نفي استقلاله وحريته ووحدته الفيزيائية وأحيانا تهليك حياته نفسها، ومع عدم الاكتراث به ككائن عاقل ".

[3] . فرانتز فانون : " معذبو الأرض "منشورات ANEP ، ص . 275.

[4] . وبمعنى عام، ومن أجل إبعاد الأكاذيب والدعايات، نقول بوجود عنفٍ عندما يحطّم واحدٌ أو عددٌ من الفاعلين شخصًا آخر، مباشرة، أو بصورة غير مباشرة، دفعة واحدة أو بالتدريج، أو يمسّوه في كيانه الجسمي أو النفسي، في ممتلكاته أو في انتماءته الثقافية أو الرمزية المختلفة. ليس العنف فقط مسألة جروحٍ أو قتلٍ، إذ يمكن أن يكون التحطيم سيكولوجيا بواسطة التعذيب

http://www.onefd.edu.dz جميع الحقوق محفوظة ©

والعنف **نوعان** :

عنف **مادي** : كالتعدي على الجسد بالضرب والجرح والقتل،

عنف **معنوي** : كالإساءة إلى شخص الغير[1] ومعتقداته وتعزيله[2]. كما يعرِّفه " لالاند" بقوله : هو " عنفوان فيه تعدٍّ عن الآخر بالقوة ".

ثالثا : أسبابه وتعليلاته :

إن العنف **ظاهرة معقّدة** تحكمها عوامل مختلفة ومتداخلة ؛ وهو يُشَكِّلُ موضوع انشغال عددٍ من العلوم الإنسانية والطبيعية، منها علم الاجتماع وعلم النفس والبيولوجيا وعلم الجريمة ... .

1. أسبابه :

إنه ظاهرة إنسانية قابلة **للدراسة والتفسير العلمي**؛ ويمكن تصنيف **أسبابها** كما يأتي : .

أ . **مجموعة الأسباب الاجتماعية والاقتصادية**، ومن أهمّ مظاهرها، تفاقم مشاكل البيت من فقر مدقع، ويتم متوحش، وتوجيه تربوي غير مسؤول، وعلاقات اجتماعية مفككة. وفي كلمة، **إن العنف في جميع أشكاله** من إرهاب

أوالنفي، أوالإيذاء في الممتلكات، أو يلحق لغة الجماعة أو ثقافتها، أو معتقداتها، أو يعني الحرمان من العمل ... .إيف ميشو، من أجل عقل متفتح : ترجمة محمد سبيلا: تساؤلات الفكر المعاصر، دار الأمان، الرباط 1987 ، ص . 76 .

[1] . سواء كان فردا حقيقيا أو معنويا.

[2] . وسنرى بأنّه من المفارقات أن يكون العنف سلوكا عدوانيا تنجم عنه عواقب سلبية، وقد يكون تدخّلا لنهايةٍ فيها نظر، من حيث قيمتها الأخلاقية.

http://www.onefd.edu.dz جميع الحقوق محفوظة ©

وعمليات انتحارية أو استشهادية ظواهر اجتماعية معقدة، يجب إدراجها في إطار **النسق الاقتصادي والاجتماعي بتلاحمه العضوي مع النسق الثقافي والسياسي.**

ب . مجموعة الأسباب السياسية والثقافية، ومن أهمها نذكر: الاحتلال العسكري لأراضي شعب، وتسلط الحكم الديكتاتوري، وتقييد الحريات، وانتشار المظالم، وانهيار القيم الأخلاقية . كالشرف والكرامة . وانحطاط المفاهيم الثقافية، كتدهور الكلمة الصادقة والصورة المحتشِمة والمقاومة الشرعية.

ج . الأسباب النفسية، وهي متشابكة أهمها: الحسد، والغيرة المرضية، وفقدان الأمل، والحرمان ؛ وفي هذه الحالة الأخيرة، يركِّز"فرويد" على عملية الكبت وخاصة في نظريته الأولى، حيث يقول : " إن الضغط الاجتماعي يتحول نفسيا إلى كبت لدى الفرد ليَعودَ في شكل سلوكٍ عدواني ضد ما يعتبره المسؤول عن معاناته . وقد يصل به الأمر إلى استرخاص الحياة واختيار الموت".

2. وله تعليلاته لدى بعض الفلاسفة :

يمكن إرجاع تعليلات العنف إلى ما يلي : أن العنف أصل حركة العالم وبنائه، وقصد عدواني لإثبات الذات، ومصدر التسلط، وأداة شرعية أخلاقيا ودينيا لاسترجاع الحقوق المغتصبة.

أ . العنف هو أصل العالم ومحرّكه : يذهب "هرقليطس 540-475 ق. م" إلى أنّه لكي تكون الأشياء . مع العِلْمِ بأن لاشيء يأتي من لاشيء . لا بدّ من نفي الشيء أو تحطيمه؛ و" أن القتال هو أبو سائر الأشياء وملك كل شيء " (المقطع، 53). فالعنف خصوبة، ولكنه أيضا، **موت تتضمن الحياة،** لذلك يعتبر

http://www.onefd.edu.dz جميع الحقوق محفوظة ©

من مؤسسي الجدل، وهو عملية تهدف إلى توحيد الأضداد وذلك ما يمثّل تناسق العالم بالنسبة له.

ب . وهو القوة كمصدر للسلطة : يقول " كالكلاس"[1] إذا كان القويُّ في الطبيعة، هو الذي يسيطر، فإنّه من العدل أن يكون الأمر كذلك في المجتمع الإنساني. ففي الطبيعة، تأكل اللبؤة أحد صغارها إن ولد بعاهة، لأنّها مجال مفتوح على الصراع من أجل الحياة، يفرض فيها الأقوى نفسه على الأضعف. **وكذلك الأمر بالنسبة إلى المجتمع الإنساني، فمن العدل أن يكون الأقوى فيه هو المتفوّق وصاحب السلطة**. فليأت إنسان قوي وجبّار وحينئذ، يمكننا أن نعرف " **القانون الحقيقي وهو قانون الأقوى، ويمكننا أن نعرف من هو الذي ننحني أمامه** ".

ج . وهو قصد عدواني من أجل نفي الآخر : ومن زاوية فينومينولوجية، يعود أصل العنف إلى قصد عدواني متجه نحو شيء أُريدَ نفيُه : نفي الآخر الذي أحقد عليه وأكرهه أو آخذ تحطيم نفسي التي لم أعد أتحملها. يقول " ج. غسدورف " : "**إن ازدواجية الأنا والآخر تتألف في شكل صراع. والحكمة من هذا التأليف هو إمكانية الاعتراف المتبادل، والتوافق والاحترام المتبادل. وعندما تنحلُّ هذه العلاقة، يهدم العنف ما كان يسمح بالتواصل. ومن هنا، يظهر الغضب الذي يسلب من الإنسان توازنه ويجعله فريسة للجنون**" .

د . هو ميل عدواني طبيعي : وعند " فرويد " ، فالعنف هو أصل الإنسان وسلوكاته : " **فهو ميل عدواني طبيعي (ثناطوس Thanatos) يتعايش**

---

[1]. " كاليكلاس" (Callicles) هو محاور" سقراط"عن "غورجياس" لـ " أفلاطون" .

جميع الحقوق محفوظة © http://www.onefd.edu.dz

مع ميل طبيعي آخر يُقابله يتجّه نحو حب الحياة (إيروس Eros). فهو ميل تلقائي لدى كل عضوية" ، إلاّ أن أصل العنف عند "فرويد" هو الصراع بين نزعتين أساسيتين : **نزعة الحياة** (إيروس) و**نزعة الموت** (ثناطوس)، **الأولى** تنزع نحو المحافظة على حياة الذات، و**الثانية** تنزع نحو إرجاع الحياة إلى السكون. يقول" فرويد" : " إنّ الإنسان كائن تنطوي معطياته الغريزية على قدر لا يستها به من العدوانية [1]".

هـ . العنف أصل البناء : إن العنف يولِّد مجتمعا جديدا، كما قال "أنجلز". فأمام العنف الاجتماعي المقنّع (اللامساواة الاجتماعية والتفاوت واستغلال طبقات لطبقات أخرى)، **يوجد عنف مضاد عادل هو العنف الإيجابي البنّاء الذي يهدف إلى تصحيح الواقع الرديء وإعادة بنائه بصورة تتناسب أكثر مع قيم الخير والحق والعدل في الحياة . بناء المجتمع الاشتراكي . فالعنف وسيلة لا غاية.**

و . إنه وسيلة تشرف بشرف غايتها : إن الثورة الأصيلة هي **في أساسها أخلاقية أمام الاضطهاد والظلم من حيث إنها تسعى إلى استرجاع الحق وتحقيق العدل.**

ز . أما العنف (الإيجابي) فتبرّره الأخلاق والجهاد : وهنا يمكن القول بأنه لا يوجد عنف من أجل العنف؛ أي لا يتخذ العنف من نفسه غاية. ولكنه

---

[1] . فرويد : قلق في الحضارة ، ص . 72.

http://www.onefd.edu.dz جميع الحقوق محفوظة ©

كوسيلة ضرورية " شر" **من أجل غاية سامية**[1]. يقول "روسو": "**ليس لنا فقط الحق، بل من الواجب أن نثور إذا اقتضت الضرورة ذلك. فهناك نوع من الأخلاقية يدعونا إلى حمل السلاح في أوقات ما** ". ويقول " ماو Mao " : " نقوم بالحرب من أجل السلم لا الحرب من أجل الحرب. والعنف لا تبرّره الغاية السامية فقط، وإنما يبرّره أيضا، الدفاع عن النفس[2]".

ويقول " كامو A . Camus " : " إن الرجل الثائر هو الرجل الذي يقول: (لا) ! وهذا يعني أن الأمور تفاقمت وزادت في التدهور وأن هناك حدودا يجب الوقوف عندها[3]".

والثورة أو المقاومة ضد الاحتلال هي عند أهلها، ثورة لا تعرف توقفا : طالما هناك احتلال، فهناك مقاومة ؛ والمقاومة أشكال ودرجات ومستويات ومراحل. فإذا كانت الظروف التاريخية والاجتماعية **سببا** في العنف، فيجب التحكّم في السبب لتجاوز هذا العنف. وهنا يجب التنبيه إلى أن مفهوم العنف من خلال المقاومة يتغير معناه حسب أن نكون مستعمَرين، أرضُنا محتلة أو استعماريين استولينا على أراضي غيرنا وثرواته. **في الحالة الأولى، تكون المقاومة حقّا مشروعا لأهله لأنه دفاع عن النفس؛ وفي الحالة الثانية، تكون المقاومة تمرّدا أو عنفا لا بل إرهابا وخاصة لدى الصهيونيين والإدارة الأمريكية بعد 2001/9/11.**

---

[1] . "إن أحدا لا يماري في ضرورة استخدام العنف في حال الدفاع المشروع عن النفس، حين لا يكون الخطر باديا فقط، بل حتميا كذلك. هنا تكون الغاية التي تبرّر الوسيلة جليّةً ". حنة أرندت، في العنف.

[2] . انظر ما يجري للشعوب المحتلة في فلسطين والعراق وغيرهما .

[3] . الإنسان المتمرّد L'Homme Révolté .

http://www.onefd.edu.dz جميع الحقوق محفوظة ©

ومن مبرراته . فيما يروي بعض الأدباء . شعور الكاتب الياباني " مِشيما "[1] باسترخاص الحياة، عندما رأى أن هوية اليابان الثقافية مهددة أمام الغزو الغربي؛ فاختار أن ينتحر على طريقة التقليد الياباني، فشق بطنه بنفسه قبل أن يَقطع رأسَه، صديقٌ له. وكان ذلك يمثل مشهدا في التعبير **عن تمسكه بثقافته الوطنية** بل يمكن أن نذهب أبعد من ذلك، لنقول بأن انتحاره كان محاولةً لإنعاش القيم اليابانية في ذاكرة قُرائه ومحبيه.

والمسلمون يبرّرون اللجوء إلى "العنف" كوسيلة ضرورية للجهاد في سبيل الله، أو لبناء دولة إسلامية، وإن كانوا غير متفقين على طريقة استخدامه.

نستنتج من كلّ ذلك أن العنف يشير في الغالب إلى الجوانب السلبية لكن بعض الفلاسفة حاولوا تبريره من حيث هو مصدر لحركة التغيير التي تحدث في الطبيعة و المجتمع و السياسة و الاقتصاد...إلخ .

II . حكمة مقابلة العنف باللاعنف (والشرّ بالخير).

أولا : سلبيات العنف

يمكن إجمال سلبيات العنف في النقاط الآتية :

1 . إن العنف لا يولِّد إلاّ العنف عاجلاً أم آجلاً، وهذا ليس لأن الإنسان يولد مجرما . وهي مقولة فيها نظرٌ . وإنّما لأنه سلوك مفهوم والشيء الذي يطلبه الإنسان العنيف هو أن يجد أمامه مقاومة عنيفة، تسمح له من أن يظهر قوته. وعندما يغيب " المِثلُ المقابلُ "، فإن العنف سيتخلف طواعية.

[1] . (Yukio Mishima)

http://www.onefd.edu.dz جميع الحقوق محفوظة ©

2 ـ إن الفيزيولوجيا العصبية وسيكولوجيا الحيوان تخبراننا حسب " فروم " (Fromm) وهو أحد المحللين النفسانيين الأمريكيين، **أن الحيوانات ليست عدوانية وهي لا تلجأ إلى العنف والعدوان :**

أ ـ إلاّ بقصد الحصول على طعامها، وللحفاظ على حياتها.

ب ـ أو عندما تتعرض لهجوم لا يمكن الفرار منه ؛ ومعنى هذا، أنّه إذا كان العدوان قد ظهر لدى الحيوان، فليس ذلك من غير دافع (ولا سبب)، فما بالك بالحيوان العاقل ؛ وبزوال السبب، تزول النتيجة (علاقة العلة بالمعلول).

3 ـ إن العنف ليس قدرا محتوما؛ وعلى هذا الأساس، يمكننا أن ننظر إليه بصفته تابعا لغاية أو **نتيجة تولدت عن وضعية أو جملة من العوامل، كما رأينا سابقا. وهو الأمر الذي يفتح لنا مجالا للأمل في محاربته عن طريق محاربة أسبابهأو في البحث عن وسائل أخرى لمحاربته.**

4 ـ إن العنف المبرّر في حالة الهجوم وكأداة ضرورية لردّه لا يمكن أن يكون في الواقع، إلاّ حجة لكلّ المجرمين. فكلّ منْ يستخدم العنف يتستّر وراء الدفاع عن النفس، وهذه ليست حجة معقولة. و عندما لا تتحقق الغاية، تصبح الوسيلة غير مبرّرة. فما هو الذي يضمن لنا بأنّ هذه هي الغاية التي ليست بعدها غاية أخرى ؟

5 ـ إن العنف ينبئ بنكوص وتردي ما هو إنساني نحو اللاإنساني.

نستنتج؛ أخي الطالب؛ ممّا سبق أن آثار العنف كثيرة ومعظمها سلبي على حياة الفرد و المجتمع على حدّ سواء.

http://www.onefd.edu.dz جميع الحقوق محفوظة ©

ثانيا : إيجابيات اللاعنف ؛

فإذا كان للعنف هذه السلبيات، يبقى أمامنا الحل الحكيم وهو اللاعنف؛ نقول الحلّ الحكيم، لأنه **مشحون بالنظرة السامية للإنسان، هذا الكائن الذي لا يرضى أن يُعامل كوسيلة، بل كغاية في حدّ ذاتها**[1].

والحقيقة أن اللاعنف ليس تراجعا ولا تخاذلا، وإنّما هو أسلوب في محاربة الشرّ دون تغذيته. إنّه يمثّل فقط، إستراتيجية للتحكّم في المعركة. يقول "غاندي" : " **لا أتردد في القول بأنّه حيثما يكون الاختيار اضطرارا بين الجبن والعنف، يجب أن يتّجه القرار نحو الحلّ العنيف [...] لا أعتقد بأن اللاعنف هو أسمى بكثيرٍمن العنف،** وأن **الصفح هو أكثر إنسانيةً من القصاص [...]، فاللاعنف هو قانون الجنس البشري، كما أن العنف هو قانون البهيمة**"[2]. إنّ اللاعنف لا يقوم على الامتناع من كلّ معركة حقيقية أمام الأذى. أرى في اللاعنف، على العكس من ذلك، شكلا من أشكال النضال الأكثر حيوية وأصالة بالقياس إلى مجرد قانون القصاص بالمثل الذي يترتب عنه **مضاعفة الأذى مرتين**". فيحارَب العنفُ (السلبي)

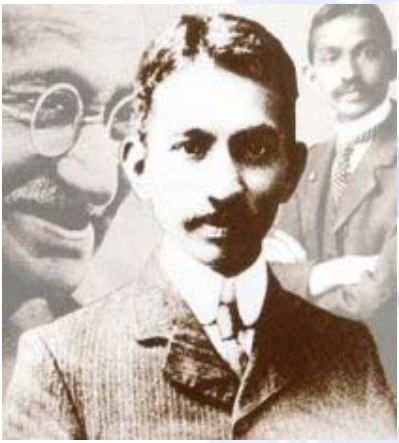

المهاتما غاندي 1869 – 1948

---

[1] . يقول" كانط" في قاعدته الأخلاقية الثانية : " اِعمل دائما بحيث تعامل الإنسانية في شخصك وفي أشخاص الآخرين **كغاية** لا كمجرد واسطة " ، تأسيس ميتافيزيقا الأخلاق، القسم الثاني.

[2] . من مأثور كلام غاندي مهاتما، سنة 1920 .

http://www.onefd.edu.dz جميع الحقوق محفوظة ©

بـ" نقيضه" (الإيجابي)[1]. وهو موقفٌ يتبنّاه الذين يرفضون تطبيق عقوبة الإعدام[2] الذي أخذت به كثيرٌ من الدول في العصر الحديث.

III . التسامح تعريفه وطبيعته والحكمة منه :

أولا : تعريفه و طبيعته :

1 . تعريف التسامح :

إن الذين حدّدوا مفهوم التسامح، وضعوا له قيودا، ويتجلى ذلك من خلال التعاريف التالية، التي يبرز فيها، الحد الأدنى الذي تقف عنده **فضيلة** التسامح :

أ . إن التسامح لدى عامة الناس، هو الموقف الذي يبيح لشخصٍ ما قبولَ أساليب الآخرين في التفكير والحياة، وهي تختلف عن أساليبه الخاصة، أو إنّه الموقف الذي يبدي فيه شخصٌ ما، **تساهلا أو احتمالا** لمفعول مؤثر خارجي، في حالة انزعاجنا كدرجة احتمالنا لسلوكات بعضنا بعضا.

ب . وهو بهذا **المعنى الأخلاقي**، درجات تختلف من شخص إلى آخر، ومن ظرف إلى آخر، وعند الشخص الواحد، من حالة إلى أخرى.

ج . وهو . في اللغة الفرنسية، وفي اصطلاح الأطباء . **الخاصية التي تملكها العضوية في احتمال مقادير مادة صيدلانية**؛ وهو لدى **المصرفيين**، العيار . المتراوح بين الفائض والنقص . الذي تجيزه الدولة في صناعة العملة

---

[1] . غاندي، المرجع السابق.

[2] . وكان الفيلسوف الوجودي "ألبير كامو" من المدافعين عن هذه الفكرة.

http://www.onefd.edu.dz جميع الحقوق محفوظة ©

النقدية؛ وهو في لغة **التقنيين**، الهامش المسموح به في القياسات الميكانيكية، بين صناعة قطعة ونموذجها الأصلي ؛ وهو في اصطلاح **الإدارة العسكرية**، السقف المحدد . حال استلام المواد المصنوعة من أسلحة وذخيرة . للفوارق المجازة بين المقاسات الحقيقية، والمقاسات المسجلة في جداول الصناعة أو الأشكال النموذجية.

ويتأكد لنا أن القاسم المشترك في كل هذه التعريفات، هو أن حدود المجال الذي ينصب عليه المفهوم، تعيِّنها **قيودٌ و حدود**.

2 . طبيعة التسامح :

يمكن عرض **طبيعة التسامح** في النقاط التالية : .

أ . إن الفضيلة المطلقة التي لا تملك نظاما، ولا حدًّا تقف عنده، قد تنقلب إلى نقيضها؛ والفضيلة في أصلها اعتدال أي وسط بين رذيلتين هما الإفراط والتفريط. وشأنها في ذلك، شأن الحرية أو الديمقراطية التي قد تتحول إلى فوضى في غياب ضوابط أخلاقية واجتماعية. **فالتسامح فضيلة واعتدال**. فلا هي مضيعة للحقوق ولا هي تعسّف وظلم.

ب . إنه يعاكس القوة والعنف؛ وقد ينقلب إلى نقيضه، وهو اللاتسامح، إذا لم يتوقف عند حدّه : ومن هذا الباب، يتعين على هذه الفضيلة، أن تحترز وتحذر؛ فكلما اتسعت مساحتها لتشملَ النقيضَ، ضعفت قوتها وتهيأت لها أسباب انحطاطها؛ والتسيب والجريمة والفوضى تبدأ من هنا. وبانحطاط هذه الفضيلة، تتهيأ كل المبررات لاستعمال العنف؛ وهو العنف الذي يعتبره "ماكيافلي "[1]،

[1] . كاتب إيطالي مارس السياسة والفلسفة، اشتهر بكتابه " الأمير ". (N. Machiavel 1469-1527)

http://www.onefd.edu.dz جميع الحقوق محفوظة ©

الفضيلةَ الجوهريةَ التي تُمَكِّن من إنجاح أيّ إنجاز، وخاصةً في مجال الحكم، وهو السلاح الطبيعي الأنسب للصراع من أجل البقاء، كما ذهب إلى ذلك " فريديريك نتشه "، وقبله التطوريون أمثال " سبنسر ".

جـ . اِرتبط التسامح عبر التاريخ، بمحاربة الحقد وخاصة، في المجال الديني.

ولقد تأخر ظهور المفهوم في الفكر الفلسفي الغربي إلى القرن السادس عشر، بعد حروب دينية دامية، والقرن السابع عشر بعد مخاصمات لاهوتية، وهذا بسبب غموض الحدود التي كان يجب على التسامح الوقوف عندها. وأخيرا، توصل النضال الفلسفي في أوروبا، إلى تقرير حرية الأديان في 04 أغسطس سنة 1789.

د . إن القيم الأخلاقية نسبية، لأننا نلاحظ بأنها لا تثبت على حال. فما هو مقبول في ثقافة ما، مرفوض بشدة، في ثقافة أخرى. **إن التسامح نسبي، تحدُّه ضوابط اجتماعية من تراث أدبي وتاريخي وعقائدي، وتحدُّه حقيقة التحولات التي يشارك الإنسان في إنجازها في عالم، لا يتوقف عن التغير.**

هـ . لا تسامح إلا بتراضي الطرفين ؛ وذلك لأنه إذا ما تم التنازل من طرف واحد، كان الحاصل لا شيء. ولهذا، فلا تسامح إلّا إذا طلبه كلاهما، بحيث يقول أحدهما : لا أطمح في التسامح إلاّ إذا كان هذا، هو طموح الآخر. وعليه، فلا بدّ من رفض كل أشكال الحقد والضغينة والتجبر والإكراه مقابل التسامح الذي يَعْرِفُ في الممارسة، متى يقف وأين، وإلا انقلب إلى فوضى عشوائية.

http://www.onefd.edu.dz جميع الحقوق محفوظة ©

و . إن الفيلسوف "هونتانغتن " (Samuel Huntington) ينصح الغربيين بالحذر من نزع السلاح و" بفهم أعمق " للحضارات الأخرى، **وبأن يتعايشوا دون أن يتحاربوا، وبأن يأخذوا حذرهم، لأن حرب الحضارات، تتهيأ لتخلف الحرب الباردة كظاهرة مركزية للسياسة العالمية.**

هكذا إذن، لا تسامح إلاّ متى عرف صاحبه مبلغ حدوده، ومجال صلاحياته؛ فهو مشروط بنبذ العنف على اختلاف أشكاله، ومتوقف على تراضي المتسامحيْن. ولكن، هل هذه الشروط هي في الحقيقة، لصالح التسامح ؟ ألا يمكن اعتبارها عقبات في وجهه ؟

ثانيا : الحكمة من التسامح ونفوره من القيود :

إن مذهب تقييد التسامح بشروط، باطلٌ وذلك من مستويين : من حيث **الشكل**، ومن حيث **المضمون**.

1 . من حيث الشكل، نكتفي بثلاث حجج :

أ . إن **المنطق الذي يقوم عليه مذهب هذه الأطروحة**، يتقوَّض من أساسه، لأنّ التسامح على العكس من ذلك، يقبل النقيض ولا يرفضه. وتقييد التسامح في صلاحياته الشاسعة، ومهامه الحرة الشاملة باسم النسبية، معناه خنقه، وجعله تحت رحمة الأهواء، والتقديرات الذاتية الضيقة .

ب . ثم إن رفض العنف هو عنف بدوره، ولا يغذي سوى العنف، وهذا ليس هو المنطق الذي يلتزم به التسامح. فالتسامح ليس معناه مواجهة العنف بالعنف، ولم يستأثر به الإنسان من أجل ذلك ؛ ولا مبرّر لوجوده، إلاّ بتواجد أضداده ونقائضه كالعنف واللاتسامح، **فيتعامل معها، بأسلوب التعاطف والحوار، سعيا وراء توجيهها نحو الغايات السامية**. هذا، وإن التسامح يبقى لا شيء، إن

جميع الحقوق محفوظة © http://www.onefiled.dz

بقي في حدود الشرط الطفيلي الذي بموجبه، يقول الطرف (أ) : أنا لا أطمح إلى التسامح مع الطرف (ب) إلاّ إذا هو صرح بطموحه. وماذا تكون النتيجة لو كان الطرف (ب) هو البادئ بالقول؟ **فالتسامح هو المبادر إلى الخير، مهما كان الشخص الذي يتجسد فيه، الأول أو الثاني.**

ج ـ وإن التعايش السلمي الذي يتحدث عنه الفيلسوف "هونتانغتن"، هو مطلب مشروط بالحذر؛ أي مطلب قائم على أساس اضطراب الثقة من الطرفين، وبما ينجرّ عنه، من رفع المرجعية التي يستند إليها التعايش نفسه، **وما يقتضيه هذا التعايش من تسامح متحرر من أي قيدٍ.**

نستنتج : أن التسامح فضيلة أخلاقية سامية لا تقبل التقييد و الشرطية ، فالتسامح أمر قطعي[1] ، على حدّ تعبير كانط.

2 **ـ من حيث المضمون :** وهنا، نكتفي بحجتين اثنتين فقط :

أ ـ إن التعريف الأخلاقي الذي انطلقوا منه، لَتعريفٌ ضيق وخانق **من حيث إنه يجعل التسامح مشروطا، والشرط مثبط يقضي على التسامح ولا يحصنه ويمنعه ولا يشجعه على أن يبقى مصدر رحمة وتعايش وقبول الغير بسلبياته، وإيجابياته.**

ومعظم الذين اهتموا بقضية التسامح، حصروه في مجال التعايش الديني والعقائدي بوجه أخص، وهو تعايش ليس فيه ضيق ولا شدة، وجعلوا من مهمته، تقارب الديانات وإسقاط الحدود واعتناق **الإنسان**، أينما كان.

---

[1] . في مقابل الأمر الشرطي. وهو الأمر الجازم الذي يتقيد به المرء لذاته دون النظر إلى ما ينطوي عليه من منفعة. الأمر القطعي Impératif Catégorique.

http://www.onefd.edu.dz جميع الحقوق محفوظة ©

التسامح لا يشمل المجال الديني فقط؛ فهو اليوم، يتسع لكل المجالات السياسية والخلقية والاجتماعية. ومن ذلك مثلا، أنه في الإسلام يُعلِن أن الإنسانية جمعاء، تشترك في التكريم من غير اختصاص بلون أو جنس أو أمة. قال الله تعالى: " ولقد كرَّمنا بني آدم وحَمَلناهُم في البرِّ والبحْرِ ورَزقناهم من الطيِّبات وفضَّلناهم على كثيرٍ مِمَّن خلقنا تفضيلا "[1]. فليس ثمة شعب الله المختار في الإسلام، بل الإنسانية كلّها، هي الخليقة المختارة في هذه الأرض، بمقتضى الإرادة الإلهية.

ولقد أعطى النبي (ص) مثلا أعلى لمعاملة أهل الكتاب. فقد روي أنه كان يحضر ولائمهم، ويشيِّع جنائزهم، ويَعُودُ مرضاهم، ويزورهم ويكرمهم. يقول (ص) : " تصدقوا على أهل الأديان كلّها "[2].

إن التسامح في أبعاده الشاملة والحقيقية، إذا تأخر ظهوره كمفهوم فلسفي، فلأن القضية ليست في مستوى فُشُوّ الأحقاد الدينية بين الفرق والطوائف، بقدر ما هي في القيود الحديدية التي كانت تكبّله وتثبطه في مهامه. وسيعود إلى التغييب، إذا ما زاد تضييقا وحراسة من الذين يعتقدون تأمينه وحمايته.

وللتعبير عن طابعه العالمي المتسامي، خُصِّص يوم 16 من شهر نوفمبر[3] من كل سنة، للاحتفال باليوم العالمي للتسامح وذلك، بمبادرة من اليونسكو سنة 1995.

---

[1] . الإسراء ، 70 .

[2] . أخرجه " ابن أبي شيبة " في المصنف، السلسلة الصحيحة : 2766 .

[3] . و في نفس الشهر من كلّ سنة يحتفل باليوم العالمي للفلسفة.

http://www.onefd.edu.dz جميع الحقوق محفوظة ©

ب . إن التسامح لا يساير تحوّلات الناس، **إلاّ لأنه ثابت عالمي ومبدأ مطلق.**

سجل معي ؛ أخي الطالب ؛ ما يلي : .

إن **الفضيلة** لا معنى لها خارج الحياة الاجتماعية التي لا تتوقف عن التغير. فهي حاضرة، وتعبّر عن حضورها في كل الظروف، بوسائلها الخاصة؛ وليس من طبيعتها ولا من وظيفتها، أن تنسحب أمام العقبات والعوائق؛ بل إنّها تطلب التفتّح والتعامل مع كل الظروف في روح من الشمولية، مع العلم بأن وراء كل متغير، ثابتًا مطلقًا، ليس بَعْدَهُ ثابت يأخذ به الناس في حياتهم المتغيرة، **كمبدأ متعال يقوم على تقبّل المغاير والتحاور معه من غير سابقٍ قيدٍ ولا شرطٍ .**

إنّ التسامح من أمهات الخصال التي تنسجم مع معطيات العصر كالعولمة والاتصال المعلوماتي وتبادل البرامج والتجارب الثقافية، ولا ترى في ذلك، أيّ تعارضٍ أو تناقضٍ. والتسامح مصدر الحوار، والحوار أداة التفاهم والتعايش، يتقبل التنوع والاختلاف.

إن القيم الخلقية هي مصدر سلوكاتنا، وهي تنطبق على جميع الناس الذين يشتركون في نفس المصير الذي حدّده لهم الله جميعًا، وليست نسبية تثبت اليوم، وترفع غدا بحيث يكون التسامحُ فضيلةً تارة، ورذيلة تارة أخرى. فهو إنْ ساير تغير المجتمعات وتحوّلات العالم، فإنّه يبقى صالحًا لجميع الناس، في كلّ زمان ومكان، ويبقى في جوهره مطلقًا وثابتًا على الدوام.

والمقياس الذي تقاس به للتمييز بينها وبين الرذائل، مقياس ثابت، لا يتغير بتغير الظروف والأحوال، مطلق من قيود الزمان والمكان. وهذا هو التصور

الذي حملته النزعة التسامحية (Tolérantisme) إلى الآخرين. وهذه النزعة هي في الحقيقة، كل تيار يضم المواقف التي تجعل من التسامح، مفهوما فلسفيا مفتوحا ومطلقا. ولعله في هذا الإطار، اشتهرت كلمة" دالامبير" (D'Alembert) الذي قال : " إن الفيلسوف لا يعثر بسهولة على أرقى شخص متسامح مثله".

وفي إطار هذا التصور، يدعو" فولتير" في كتابه " **مقالة في التسامح**"، إلى التسامح في جميع المجالات وبوجه أخص، في مجال الدين والعقيدة، باعتباره قانون الطبيعة العالمي، ووقفا على الإنسانية كافة؛ والوقوف في وجهه، تنجم عنه مآس رهيبة. يقول : " إننا أبناء من نفس الأب، ومخلوقات من نفس الإله. وإننا عجين من النقائص والأخطاء؛ لنتسامحْ حماقاتنا فيما بيننا : إنه قانون الطبيعة الأول.لقد كان اليابانيون أكثر الناس تسامحا : في إمبراطوريتهم، قامت اثنتا عشرة ديانة وديعة ؛ ثم جاء اليسوعيون، فأقاموا الديانة الثالثة عشرة، ولكن اليابانيين بقصد ألا تزيد معاناتهم، احترزوا منها؛ وكلنا يعرف، ما ترتّب عن ذلك، من حروب أهلية دامية ؟.

ولقد سبق الإسلام بالدّعوة إلى احترام اختلاف الناس في توجهاتهم ومللهم. قال تعالى : " ولو شاء ربُّك لجعل الناسَ أمةً واحدة. ولا يزالون مختلِفين؛ إلّا من رحم ربك ، ولذلك خلقهم "[1] . وعلى هذا، عَلِم المسلمون أنه يتوجب عليهم أن لا يحقدوا ولا يضطهدوا من يخالفهم في الدين، لأنّ هذه هي إرادة الله التي خلقت الناس على هذا الاختلاف. فهو لا يُرغم أحدا على ترك دينه،

[1] . هود ، (118-119) .

http://www.onefd.edu.dz جميع الحقوق محفوظة ©

واعتناق الإسلام : "لا إكراهَ في الدِّين، قد تبين الرُّشدُ من الغَيِّ "[1] ؛ ويقول تعالى مخاطبا رسوله "محمدا " (ص) : " ولو شاء ربك، لآمن من في الأرض كلُّهم جميعا؛ أفأنت تُكْره الناسَ حتى يكونوا مؤمنين "[2] ؟

وعلى هذا الأساس، كان المسلمون في عصورهم الأولى، يبيحون لأهل البلد الذي يفتحونه أن يبقوا على دينهم مع أداء الجزية[3]. وكانوا في مقابل ذلك، يحمونهم ضد كلّ اعتداء، ويحترمون عقائدهم وشعائرهم ومعابدهم. وخير مثال على ذلك، العهد الذي قطعه " عمر بن الخطاب" على نفسه لأهل "القدس"، " أعطاهم الأمان لأنفسهم وأموالهم، ولكنائسهم، وصلبانهم وسقيمها وبريئها وسائر ملّتها : وأمر بأنّه لا تُسكَن كنائسُهم، ولا تُهَدَّم، ولا ينتقص منها ولا من حيزها ولا من صليبهم، ولا من شيء من أموالهم، ولا يُكرَهُون على دينهم، ولا يضارُّ أحد منهم".

فالإسلام حرّم الخمر، وأقام الحد على شاربها من المسلمين، ومع ذلك، أباح لغيرهم أن يشربوها. وذلك، حرم لحم الخنزير ولكن أباح لغير المسلمين، أن يأكلوه ما دام دينهم لا يحرم ذلك. ولقد ذهب "أبو حنيفة" إلى أنه إذا أراق مسلم خمرا لذمِّي يعيش تحت الراية الإسلامية أو قتل خنزيرا له، وجب عليه أن يدفع قيمة ما أتلف.

---

[1] . البقرة ، 256 .

[2] . يونس ، 99 .

[3] . نوع من الضريبة يدفعه الذمي في أرض الإسلام .

http://www.onefd.edu.dz جميع الحقوق محفوظة ©

ومن آثار التسامح الديني، ما رسمه الإسلام من أدب المناقشة الدينية، ومجادلة أهل الكتاب مجادلةً أساسها العقل والمنطق، وعمادها الإقناع وبالطريقة التي هي أحسن."ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة، وجادلهم بالتي هي أحسن"[1].

هكذا إذن، يبادر التسامح بقبول النقيض، دون إزعاج ولا انزعاج مهما كانت الحواجز محرجة.

* **وهو فضلا** عن هذا وذاك، بمثابة الإحسان من حيث إنه من الطاعات الزائدة عن المفروضة. يقول " الفخر الرازي " في تفسيره الكبير : إن الله تعالى لا يملّ من الإنعام على العبد، ولو أتى العبد بأعظم الجرائم، فإنّه لا يقطع عنه مواد نعمه وروافد كرمه. ولقد اتفق أكثر العلماء على أنه يجب تعظيم الوالدين مثلا، وإن كانا كافريْن، لأن قوله تعالى في الآية " وبالوالدين إحسانا " **غير مقيد بكونهما مؤمنين أم لا، ولأن الأمر بتعظيم الوالدين لمحض كونهما والديْن، يقتضي العموم**. وعليه، فإن الإحسان إليهما هو ألا يؤذيهما البتة، ويوصل إليهما من المنافع قدر ما يحتاجان إليه، فيدخل فيه دعوتهما إلى الإيمان إن كانا كافرين، وأمرهما بالمعروف على سبيل الرفق، إن كانا فاسقيْن.

* **ولنا في فلسفة** "كانط" وسلوك المتصوفة، ما يؤكد **مطلقية** التسامح. **فالتسامح من أجل التسامح أو من أجل توحيد الله وشكره ومحبة عباده السمحاء والصبر لهم، كل ذلك من شأنه أن يعلّمنا كيف ندرك المطلقية ومرتبة التقرب إلى الخالق المعبود.**

---

[1] . النحل ، 125 .

http://www.onefd.edu.dz جميع الحقوق محفوظة ©

* **وحفاظا** على شمولية التسامح ومطلقيته، يدعو "جون لوك" إلى الفصل بين السلطتين : سلطة السماء وسلطة الأرض، وذلك لأن كلّ إنسان ينتمي إلى مجتمعين : **المجتمع المدني** . باعتباره مواطنا يحترم قوانينه، ويحمي حياته وحريته والأمن لشخصه ولأملاكه . و**المجتمع الديني** أو الكنسي الذي يختاره بحرية، لتحقيق خلاصه الروحي. فلو استطاع هذان المجتمعان التعايش دون تداخل ؛ أي لو أقيم الفصل بين الدولة والكنيسة بصورة واضحة، لكان التسامح مشكلة غير قائمة، ولم تعد تطرح. فلا يجب الخلط بين السماء والأرض، لأن المجتمعين الكنسي والمدني، يختلفان من حيث أصلُهما وغايتهما وموضوعهما. إنّ سلطة الأسقف لا تعني شيئا خارج كنيسته أو أمام أشخاص أجانب عن كنيسته. وسلطة الحكام التي لها كفاءة التمييز بين المصلحة المادية وموكّليهم، لا تستطيع أن تبتّ في أمر خلاصهم، ولا اختصاص لها في الميدان الروحي.

إن الحاكم لا دخل له في العبادة أو الطقوس وفي الأوقات والظروف، لا في إدخالها ولا في منعها. وحتى المعصية عندما لا تكون لها عواقب مدنية، ليس من حقه درؤها. وكذا الأمر بالنسبة لموضوع العقيدة. ولكن الأخلاق، واستقامة السلوك . وهو مجال الدين والمجتمع المدني على حد سواء . يفتح مخاطر التعدي العكسي، ويكفيه التمييز بين البحث عن الخلاص، والخير العمومي الظرفي[1]. ثم إن الاعتقاد بأن وجود الفرق هو أمر خطير بالنسبة إلى الدولة، لهو تشاؤم مبالغ فيه : " إنّ الحرية المطلقة تنْزِع السلاح لأهل التطرّف. ومن هذا التسامح الكلي، وهو مفيد للنظام العمومي، ينشأ في آن واحد التنافس الروحي والرفاهية المادية.

---

[1] . John Locke, Lettre sur la tolérance, p. (22-27). . انظر .

http://www.onefd.edu.dz جميع الحقوق محفوظة ©

ومن أراد النيل من شمولية التسامح المطلقة بحجة تمييع القيم الاجتماعية والأخلاقية وتسيب حرمة النصوص القانونية، يكفيه التمييز بين الميدان الخاص أو الشخصي والميدان العام أو العمومي؛ فالأول يتعلق بالتسيير الحر لتشريع الأنا ؛ **والثاني** تابع للقانون الذي يمنع أو يبيح الفواحش والأعمال غير الشرعية، وينظمها تنظيما خاصا.

* **على أن هذا**، لا يعني أن الاختلافات بين العقائد والقيم، وبين الحضارات والثقافات، تزول بين عشية وضحاها. ولكن **التفاعلات بين شعوب مختلف القارات، تتضاعف مع الزمان، في تقوية الشعور الإنساني**. والعالم يصغر في عيوننا بالتدريج إلى أن ينكمش في بيت أو خيمة واحدة. وهذا يتطلب جهودا لتشخيص العناصر المشتركة بين حضارات المعمورة.

وهذا "روجي غارودي" (R.Garaudy) . فيلسوف الحوار الحضاري . **ما فتئ يدعو في عدة مناسبات، إلى اعتناق الإنسان، مهما كانت عقيدته وجنسيته، ومهما كان زمانه ومكانه. وذلك على أساس التسامح والمحبة.** وعلى الرغم من ذلك، وعلى الرغم من أنّه أفنى عمره في تحقيق تقارب الثقافات والذي كان يشرف على المعهد الدولي للحوار فيما بين الحضارات، والذي قضى شبابه في المعتقلات، وكان ضحية بشاعة العنصرية، فإنه تعرض لهجوم واسع النطاق، وبحجم له من الشدّة، ما حمل بعضهم إلى اقتراح تسجيله في كتاب "غينس" للأرقام القياسية الخاصة باللاتسامح.

وإذا كنا لا نستطيع أن نتصور في المستقبل، حضارةً عالمية واحدة، فمن باب التسامح أن يتوجّه العالم إلى بناء حضارات مختلفة، كل واحدة منها تسعى إلى أن تتعلّم كيف تتعايش مع غيرها من الحضارات.

خاتمة : حل المشكلة

إذا كان العقل قاسِمَنا المشترَك، وكانت سلوكيات العنف واللاتسامح تَصدر عنّا كبشر، بشكلٍ أو بآخرَ، وفي ظروفٍ ما، **فإن الحكمة ليست في متناوَل الجميع من حيث إنها تطرح على جانبٍ، كلَّ العمليات الحسابية الضيِّقة والأَقْيِسة المنطقية العقيمة ؛ إنها تسعى وتُناضل جاهدة إلى لمِّ شَتات العناصر المتعددة، مهما كانت متنوِّعة ومتنافرة فيما بينها، لتَرْقَى بها فوق منطق البهيمة وفوق الاعتبارات اللاإنسانية.**

إن الإنسان . على الرغم من أنه كائن القيم السامية . قد تُغشي بصرَه، غرائزُه العمياء وميولُه الجموحة، عندما تغيب الحكمة. وما الحكمةُ في هذا السياق، سوى أسلوبِ تسْيير حياتنا واحتمال بعضِنا بعضا، تحت رعاية المحبة والإخاء، وفي ظل ثقافة اللاعنف الإيجابيِّ، وثقافة الحوار والتسامح والصَّفح الجميل[1]؛ ضالَّتُها فلسفةُ " وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خيرٌ لكم "[2] ، وسبيلُها " الأحسن فالأجمل ".

---

[1] . عندما طلب بطرس من المسيح: " هل يجب أن نصفح سبع مرات ؟ " لم يقل المسيح سبع مرات بل سبعين في سبع مرات (إنجيل متى الفصل 18، 21–22) ، وجاء في القرآن الكريم : " فاصْفَحِ الصَّفْحَ الجميلَ " (الحجر ، 85) ، و" فاصْفَحْ عنهم وقُل سلامٌ، فسوف تَعلَمون " ، (الزخرف، 89) ، و" وليَعفوا وليَصفحوا، ألا تُحبون أن يغفر اللهُ لكم ، والله غفورٌ رحيم " ، (النور، 22) .

[2] . البقرة ، 216 . تأمل أيضا ، النساء ، 19 .

http://www.onefd.edu.dz جميع الحقوق محفوظة ©

تطبيق : نص فلسفي

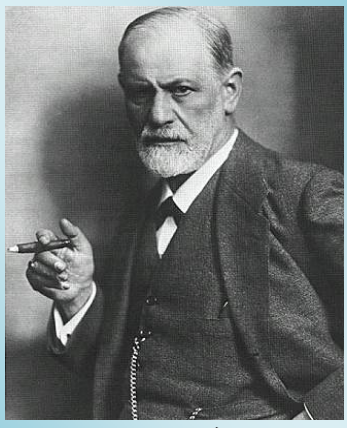

فرويد

1939 – 1856

« سوف أتمسك في كلِّ ما يلي، بوجهة النظر التي تقول إنّ العدوانية تمثّل استعدادا غريزيا بدائيا ومستقلاّ بذاته لدى الكائن البشري، وسوف ألحّ على واقع أنّ الحضارة تلاقي فيها أخطر معوّقاتها. لقد راودنا أثناء هذه الدراسة، ولهنيهة من الزمن، ما يشبه الحدس بأن الحضارة سيرورة قائمة بذاتها وتجري فوق الإنسانية، ونحن ما نزال إلى الآن تحت سلطان ذلك الانطباع. لكننا نضيف القول بأن تلك السيرورة إنّما تعمل في خدمة "إيروس[1]" و تريد بهذه الصفة أن تجمع أفرادا مفردين، ثم أُسرًا، ثم قبائل أو شعوبا أو أمما، في وحدة رحبة واسعة : الإنسانية بالذات. لمَ كان ذلك ضرورة ؟ لسنا ندري شيئا، وكلّ ما هنالك أنّه من صنيع الأيروس.

إنّ على تلك الكتل البشرية أن تتحد " ليبيديا" فيما بينها، أمّا ضرورة بحد ذاتها، وفوائد العمل المشترك فغير كافية لإعطاء تلك الكتل التلاحم المرام، إذ أنّ الدافع العدواني الطبيعي لدى الناس، وعداوة الفرد للمجموع والمجموع للفرد يعارضان برنامج الحضارة هذا.

---

[1] . Eros الطاقة الحيوية، أو الغريزة الباحثة عن اللذة الجنسية المؤدية إلى بقاء الحياة.

http://www.onefd.edu.dz جميع الحقوق محفوظة ©

وهذا الدافع العدواني هو السليل والممثّل الرئيسي لغريزة الموت التي رأينا أنّها تعمل جنبًا إلى جنب "الإيروس" وتقاسمه السيطرة على العالم، وابتداء من هنا لن يعود مدلول ارتقاء الحضارة غامضًا في رأيي : فالمفروض فيه أن يعرض لأنظارنا الصراع بين "إيروس" والموت، بين غريزة الحياة وغريزة التدمير، كما يدور في داخل النوع البشري. وهذا الصراع هو، في حاصل الكلام، المضمون الأساسي للحياة، ولهذا ينبغي تحديد ذلك الارتقاء بهذه الصيغة المقتضبة : كفاح النوع البشري في سبيل الحياة .»

فرويد

قلق في الحضارة ،

ترجمة جورج طرابيشي، ص ص . 86 /87

http://www.onefd.edu.dz جميع الحقوق محفوظة ©

تطبيق : نص فلسفي

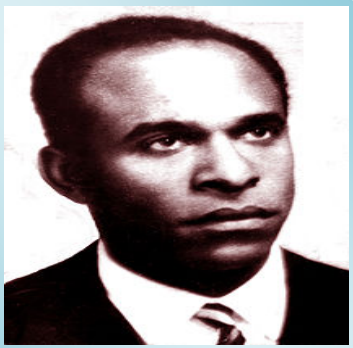

فرانتز فانون

1925 - 1961

« إنّ العالمَ المستعمرَ منقسمٌ إلى عالمين، والخطّ القاسم، أو الحدود الفاصلة، إنّما تدلُّ على الثكناتِ ومراكز الشرطة. فالدركيُّ أو العسكريّ في المستعمرات هما المرجِع القيم الشرعي الذي يرجع إليه المستعمَر، وهما الجهةُ التي تنطقُ بلسانِ المستعمِرِ ونظام الاضطهادِ.

إنّنا نرى في المجتمعات التي تنتمي إلى الطرازالرأسمالي، أنّ التعليمَ، سواء أكان دينيًا أم علمانيًا، وتكوينَ المنعكسات الأخلاقية التي يأخذُها الأبناءُ من الآباءِ، والشرفَ المثاليَّ الذي يُسْنَدُ إلى عمّالٍ يُمْنحونَ الأوسمةَ بعد خمسين عامًا أنفقوها في القيام بخدماتٍ مخلصة، وتشجيعَ حبّ الاتزانِ والتعقّلِ، هذه الأشكالُ الجمالية لاحترام النظامِ القائم تخلقُ حول المستغَلّ جوًّا من الخُضوعِ والكبحِ يخفّفان عبء قوى الأمن تخفيفًا كبيرا. إنّنا ترى في البلاد الرأسمالية طائفةً كبيرة من أساتذة الأخلاق والموجِّهين، و « المضلّلين» تقِفُ حائلاً بين المستغَل والسلطة الحاكمةِ. أمّا في المناطق المستعمَرة فالدركي والعسكري، بحضورِهما المباشر وتدخّلاتهما السريعة الكثيرةِ، يظلاّن على اتصالٍ بالمستعمَر وينصحانه بالعصا أو المواد المحرقة، أن لا يتحرّك. وهكذا ترون أن وسيطَ السلطةِ الحاكمةِ لايخفّف هنا

http://www.onefd.edu.dz جميع الحقوق محفوظة ©

الاضطهادَ، ولا يسدل على السيطرةِ حجابًا... إنّه يعرضُهما، إنّه يُظهرهما. إنّ الوسيطَ يحملُ العنفَ هنا إلى بيوتِ المستعمَر وإلى أدمغتِه ».

فرانتز فانون[1] : معذبو الأرض

ترجمة : د.سامي الدروبي و د. جمال الأتاسي

مراجعة الأستاذ عبدالقادر بوزيدة

ص . 28، 29

[1] . " فرانتز فانون Franz Fanon" طبيب أمراض عصبية و عالم نفساني وعالم اجتماع من أصل مارتينيكي ، كان يعمل بمستشفى البليدة بالجزائر،اهتم بدراسة الآثار النفسية للاستعمار على المستَعمَر بوجهٍ خاص. ساند الثورة الجزائرية من أجل الحرية و الاستقلال. من أهم مؤلفاته : " بشرة سوداء و أقنعة بيضاء" ، "معذّبو الأرض" ، "سوسيولوجية ثورة"، إلى جانب مقالات في مجال تخصصه.

http://www.onefd.edu.dz جميع الحقوق محفوظة ©